أثر أيام العرب فى الأدب

للأستاذ السباعى بيومى

المدرس بدار العلوم

قليلون جدا أولئك الذين يدرسون الأدب العربى على حقيقته ، وأقل منهم بكثير هؤلاء الذين يتعمقون فى تتبع أطواره وسبر أغواره .

ومن بين هذه الفئة القليلة التى توافرت على البحث والتمحيص فى لغة العرب وتعرف أسرارها الأستاذ السباعى بيومى المدرس بدار العلوم والمهذب لكتاب (الكامل) فى اللغة والأدب لأبى عباس المبرد . وقد اتحفنا بهذا البحث القيم فنقدمه لقرائنا ليستطيبوا به ضربا من ضروب الأدب العربى الصحيح ؟

المحرر

للعرب أيام كثيرة العد ، متعددة الأسباب ، يكاد المسلم بها يجزم أنه اذا كان لأمة شهرة بصناعة مميزة ، كانت صناعة العرب فى جاهليتها الحرب والقتال ، والطعن والنزال ، لاتصال أسبابها بعيشهم ، ولذا كانت شديدة التأثير فى أدبهم .

ولما كان الشعر ديوانهم الذى اليه يحتكمون ، وبه يفتخرون ، فقد فاض عليه من الأيام ما لولاه لفاض معينه ، وصرح نبته ، فلم نره كما نراه الآن تلك الروضة المعطار ، ذات الغصون الناضرة ، والأطيار الشادية .

حببت الحرب الى نفوس العرب - وهى طبيعة فيها - صفة الشجاعة والنجدة ، والبأس والقوة ، بقدر ما بغضت اليهم الخور والضعف ، والجبن والهلع ، فكانوا فى حضهم عليها واصطلائهم نارها ، وانتشائهم بلذة الظفر فيها ، يقولون الشعر .. شعر الحماسة والفخر ، فيصدر منهم جزل الألفاظ ، شريف المعانى ، نبيل المقاصد ، يحرك من القلوب الضعيفة ، ويهون الموت على الأعزة الأحياء ، ثم ينثنون إلى بكاء قتلاهم ، وتعداد بلائهم ، تخليدا لمآثرهم وذكراهم ، فاذا هذا شعر الوجدان

الباكى ، والعاطفة الأليمة ، ممزوجة بما يخفف على الحر رزء المفقود ، ويجعله يأنف أن يموت حنف أنفه ، ويعد من النقيصة والعار ألا تكون منيته بطعنات الرماح ، وضربات السيوف ؛ وأى أمر غير هذا جعل أبا تمام الطائى يسمى ما اختاره من شعرهم ديوان الحماسة ، ويجعل أكثر من نصفه خالصا لها ؟ ولما كان حتما مقضيا بعدها من الموت ، فالتأبين فالرثاء .

تأمل عيون الشعر الجاهلى فحيث ترى العين قذافة لا ينقطع ماؤها ، ترمى بكل مقطعة منه متماسكة الألفاظ ، متعاشقة المعانى ، تجدها من هذين البابين ، وهل لغيرهما - ومنشؤهما ذكر الفجيعة فى الميت ، واستخلاص الحياة للحى من الاتصال بقرارة النفوس وتحريك ماكن فيها - مثل مالها ؟ اللهم لا .

ثم يتصل بهذين البابين - عن قرب - التفاخر بإجارة الجار ، وإغاثة الملهوف ، ونصرة المظلوم ، - وعن بعد - التمدح بقرى الأضياف وإيواء الطارقين ؛ وما لنا نبعد بالقرى والإيواء عن مواطن الشجاعة والاقدام ! وهما راجعان الى الكرم ، والكرم والشجاعة صنوان ومن أصل واحد ينبتان ، هو السماحة وما تقتضيه من بذل يقع فى المال فيكون سخاء وكرما ، ويرتفع الى أقصى غاية الجود تضحية بالنفس فيكون شجاعة وإقداما ؛ أفلا تحس اذن أن الشعر العربى اذا تجرد مما أثر فى هذه الناحية الواسعة الأطراف يصبح قاعا صفصفاً ، أو يعدم أقل مايصاب جواهر تاجه ووسائط عقوده فيذهب ماؤه ويضيع بهاؤه ؟

ثم كان من عادة العرب فى الحروب أن يسيروا ليلا ليدهموا بالغارة صبحاً ، فكان من هذا سرى الليل وتعريسه ، وهول ذلك وخوفه ، وما اتصل بالسرى من ذكر الليل نفسه فى دجنته وظلمائه ، أو فى سمائه ، بما يسطع فيها من بدر ، أو يهدى من نجم ؛ وهذا منحى آخر من القول بين التأثير فى اللغة والتأثر بالأيام .

وحتى اذا هدأت الحرب ووضعت أوزارها ، كانت تفيض على اللغة بالمتع الكثير منها ؛ ففى الدعوة الى السلم ونفعها ، والتنكب عن الحرب وضرها - من الخطب والوصايا والحكم والمواعظ وضرب الأمثال والشواهد - ما استنفد جلها ، وأخذ كثرها ، ولو تتبعنا هذه الناحية نحصيها مع ما اتصل بها من صلح ووئام ومغارم ومحامل وديات يفرق فيها بين عربى صريح وآخر مقرف أو دعين ، لوجدنا الشطر الأكبر فى النثر الجاهلى الى هذا ينسب كما نسب نظيره فى الشعر الى الحماسة والرثاء . وما تعلق بهما أو انشعب منهما .

وإن لنا أن نعتبر عناية العرب بأنسابها ، وحفظها لمفاخرها وأحسابها ، الى ذلك الحد الذى لم تعرفه أمة غيرها ، راجعة الى ولعها بالحرب أيضا ، حتى اذا ما دهمت داهمة ، كان كل أعرف بقبيله وعشيرته وناصره ومولاه ، واذا ما طالب ثأر كان معروف المحل ومن هو منه قريب أو بعيد ، فاذا

ماحانت المفاخرة والمنافرة كانت الاصول التى تقع عليها معروفة غير منكورة ، لانطاوع عربياً أن يدعى غير أبوته ، أو ينتسب الى غير قومه ، ولذا كان الأدعياء نورة فى العرب محل ضعة منهم وتهجين . ثم مانظن عناية العرب بالخيل - تلك العناية البالغة مبالغها الدقيقة فى تناولها - إلا منسوبة الفضل الى الأيام ، فما تستتب شجاعة الشجعان فترى منهم البلاء والفناء الا بالخيل ، عليها يكرون ، وبها يقتحمون ؛ وهل أدل على شدة التلازم بين الشجاعة والخيل من تسمية الرجل على الجواد فارساً ، فاذا ما كان على بغل أوحمار قيل : بغال وحمار ؟ وألا يكون أخذ الفرس من الفرس - وهو الهصر والكسر ، والخيل من الخيلاء ، وهى الدل والعجب - آية أخرى على هذا التلازم ؟ واذن فما تبع تلك العناية من الاكثار الكثير فى أسماء الخيل ونتاجها وعتقها وصفاتها ماألفت فيه كتب ولم يسعه كتاب ثم ما كان من تفضيل العربى لجواده على نفسه فى الزاد ، وجعله واياه جزءا لاينفصل منه فى التفاخر بالاستبسال ، إن هو إلا من الحرب نشأ ولأجل القتال كان .

وأليس على أيام العرب وحروبها قامت صناعة السيوف والرماح وسائر عدد الحرب والقتال من مغافر ودروع ، ولجم وسروج ؛ وهذا ضرب آخر أفاض على اللغة الغنى والثراء مفردات وتراكيب وأخيلة وأوصاف : فالسيف فى صقاله ولمعانه وحدته ومضائه ، والرمح فى اعتداله واستوائه وصلابته وملدانه ، ثم غيرهما مما تقدم فيما لها من صفات وأحوال ، وليس ذلك بالخفى المجهول — قد فتح فى اللغة فتحاً مبينا ، ونماها نموا كبيرا .

على أن العرب لم تقف عند الخيل ووصفها والآلات ونعتها ، بل تلفتت الى ماحولها من حيوان غير أليف فاذا بالأسد قد امتلك عليها لبها وشغل منها قلبها وفؤادها ، فلم كان الشاغل دون غيره ؟ ! ألا إن ذلك لما جبل عليه العربى من الولع بالقتال ، وتمجيد الجرأة على المقارعة والنزال ، فأخذ يعنى بهذا الحيوان : يبحث عن أحواله ، ويتشبه به فى صفاته وأفعاله ، حتى أحله من نفسه محلا رفيعاً وجعله على سائر الوحش سلطانا ومليكا ، وليس يخاف على أحد ماورد باللغة عن هذا الحيوان من أسماء ونعوت ، وما قذفت به ألسن الحمية والنجدة عنه من آيات اكبار واجلال ؛ ثم لم يعدم غيره من الحيوان الضارى أن ينال من ذلك بقدر ضراوته : كالنمورة والفهود والضباع والذئاب ، وان كان فيما اختص به الأسد دونها من نبل وكرم وعلو وترفع فوق ماتقدم عنه من قوة وجرأة ماجعله المقصود لدى العرب بالتجلة والاعظام ، والمتشبه به فى كثير من الصفات والخلال ، وصرفهم عن غيره الى القول فيه أكثر مايقولون .

وهل أقدمت العرب على تسمية قبائلها وبطونها وأولادها وفتيانها بالكريه من أسماء الحيوان : كأسد وفهد ونمر وذئب ، ثم من غير الحيوان : كحجر وصخر وجشم وعبس - إلا محبة لتلك الأسماء وتفاؤلا لبنيهم أن يكونوا من صفاتها على كمال ، فيحموا الحوزة ويدافعوا عن العشيرة ، ويكونوا

للحرب أهلا ، ولمقارعة الأبطال كفاء ؟

وهل اذ انطوى بساط الجاهلية بما كان عليه من شجار وعراك واشتباك وقتال ، بما قد نشر الاسلام من لواء سلامه ، ومد من ظل عدله ووئامه ، انقطع مدد الأيام للأدب ، أو وقفت حركتها الدافعة له ؟ كلا فقد مكثت أيام الجاهلية الأولى مدداً للشعراء غير مقطوع ومفاخر يبتعثون تراثها غير خلق ولا مجدوع ، نقرأ ذلك مستجيدين مستحسنين ، ولآثاره حامدين مستكثرين ، من لدن صدر الاسلام فى مفاخر الفرزدق وجرير ، الى حيث قطع العصر العباسى عهد شبابه وصباه على أيام البحترى وأبى تمام .

واذن فهذه كلمة انتظمت أثر الأيام فى الأدب جله ، وما كان لها عليه من فضل ونماء ، وهى على ماترى تتناول الشعر والنثر كليهما أمثلة لها وشواهد عليها الا ماقل منهما ؛ ومن ثم يسوغ لنا أن نقول غير مبالغين ولا متجنين : إن أيام العرب وأدب العرب يكادان يكونان شيئا واحداً لا شيئين ، ولذا كان الحض على تعرف أيامهم فى القديم بمثابة الوصاة على تعلم آدابهم ، لالبس فى ذلك ولا كبير افتراق ؟

السباعى السباعى

فى الحب والحياة

(بقية المنشور على الصفحة رقم ١١٢٢)

ذى حضارة ضيقة . . . ؟

لقد فرض علىّ أن أتزوج بمن لاأعرفه ، وقام أبواى بتنفيذ ذلك . . .

وهذا نظام لأسرة وضع منذ زمن غابر ولا تزال تتجاهل هل نحوره أو نحوله ؟ وكل يوم تقع مخالفات تعتبرها القوانين السماوية أو الوضعية معصيات . . .

واذا كان الحب هو جوهر الأديان بل هو أصل الخليقة ، فهل يفهم المجتمع ذلك ويعمل على احترام الحب ومحبيه ؟ ؟

أختى آمال !

يستعذب المتدين الآلام فى سبيل معرفة الحقيقة ، وحقيقة هذا العالم هى الحب . . .

وأنا لا أملك من نفسى شيئا اذا تحدث مجتمعهم أو قانونهم عن اتهامى . .

فنحن نسير فى هذه الحياة وفق إرادة عليا قد رسمت لنا — رضينا أم أبينا —

هذه الارادة العالية هى الحب . . .

تحياتى العاطرة والسلام . . . . ؟ احسان

أحمد منصور مطاوع